النشأة السوسيولوجيا: يكاد يجمع المختصون في الحقل الاجتماعي أن علم الاجتماع دخل الجزائر مع دخول المستعمر الفرنسي وعليه فهو مطلب من المطالب السكولونيالية، جاء لخدمة المشروع الكولونيالي والمتمثل في الهيمنة والتوسع على الشعب الجزائري، وهذه الهيمنة لن تأتي إلا إذا جندت كل الطاقات وسخرت كل المعارف وعلى رأسها العلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة وذلك لما يمكن أن يقدمه هذا العلم من خدمة للمستعمر.

← أطلقت دفع برنامج خاص بالسوسيولوجيا الجزائرية مع الاعتماد على التدريس بجامعة الجزائر.

وعليه نجد (رينيه موني René monier) كتب سنة 1936 تابا تحت عنوان "خليط من سوسيولوجيت شمال افريقيا" وخصص فيه مبحثا كاملا وهو المبحث الثالث تحت عنوان: برنامج لسوسيولوجيا جزائرية Programme d'une sociologie algérienne جاء فيه: "حتى هذه اللحظة، كلمة سوسيولوجيا لا وجود لها في برامج وملصقات جامعتنا للحقوق عكس ما هو معمول به في العديد من الجامعات الأجنبية".

ويضيف قائلا بأن الأسباب التي دفعت بـ: 1) احداث فرع علم الاجتماع في جامعة الجزائر هو شعورنا بمحاولة لا مركزية التعليم، بالإستجابة! 2) رغبات وتطلعات المثقفين في الجزائر، بالإضافة! 3) معرفة الشعب الذي يسكن معه هؤلاء المثقفون"(1)

وضف نفهم أن احداث السوسيولوجيا جاء تماشيا مع المشروع الاستعماري الهادف إلى التحكم في الأهالي وأن هذا لن يأتي إلا إذا تم معرفة جميع المؤسسات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية لهذا البلد، ولهذا الغرض تم احداث هذا التخصص وتم تجنيد علماء الاجتماع والانتروبولوجيا والاتنولوجيا.

---

(1) جمال معتوق: مسيرة علم الاجتماع في الجزائر: من النشأة إلى التبعية، المجلة الجزائرية للدراسات السوسيولوجية، العدد 01، 2007، ص 60.

Scanné avec CamScanner

الطلب على السوسيولوجيا كان مشروعا استعماريا أو بالأحرى طلب استعماري

وأداة لفهم المجتمع الجزائري، والتعرف على نقاط قوته وضعفه من خلال الدراسات الاستكشافية التي قام بها المستعمر الفرنسي، والتي كانت تحدق في خدمة المشروع الكولونيالي بالدرجة الأولى وتزييف الحقائق والوقائع، باستثناء بعض الدراسات العلمية الأكاديمية القليلة التي ترقى إلى مستوى البحث العلمي كأعمال: جان دوبيتس Jean Dibtz. وشارل أندري جوليان Ch.A. Julien ولوكور Le Coeur وجاك بيرك Berque J. وانطلاقا من هذا تمكن تقسيم السوسيولوجيا الكولونيالية إلى نوعين: - رسمي: خطط له من طرف الوزارة الحربية من عسكر ومرتزقة خدمة للمشروع الكولونيالي، وسوسيولوجيا محايدة ذات نزعة أكاديمية وإنسانية كأعمال جاك بيرك.[1]

ففرنسا حاولت بناء العلاقات الاجتماعية في الجزائر وفق الرأسمالية الأوروبية عن طريق القوة وبسط النفوذ والهيمنة من خلال معرفة سوسيولوجية تكون بمثابة تمهيد لفهم ومعرفة المجتمع الجزائري، وبالتالي كانت السوسيولوجيا الأنسب لأداء هذا الدور، حيث نجد محمد حافظ دياب يقول في هذا الإطار: هناك نوع من التناقض الغريب والعجيب بين عمل الاستعمار الفرنسي وممارسته مع الاجتماع، فإذا كان الأول هو الذي يوجه الثاني ويقوده باسم مجد فرنسا، فإن الثاني استطاع أن يمد الأول بالعديد من الأسلحة الفتاكة والخطيرة إلى

فقد وظف المستعمر الفرنسي علم الاجتماع ومختلف الدراسات المقامة باستراتيجية قوية في مواجهة شعب أبى إلا أن يقف في وجهه، وبالفعل فقد تم جمع معطيات في قرابة أربعين مجلدا بين 1844، 1867 حقائق كانت مشوهة ولا صلة لها بالمجتمع الجزائري.

---

(1) جمال معتوق: علم الاجتماع من النشأة إلى اليوم نماذج، دار الإمام مالك للنشر والتوزيع، 2004، ص 34.

(2) محمد حافظ دياب: علم الاجتماع في الجزائر، الهوية والسؤال، مجلة المستقبل العربي، العدد 134، 1990، بيروت (لبنان)، ص ص 82-87.

Scanné avec CamScanner

2/ تطور السوسيولوجيا في الجزائر: تدرك السوسيولوجيا من خلال مراحل تاريخية معينة، وهي بمثابة معالم هامة لفهم الدلالات الخاصة بالتغيرات والتحولات التي مستها، إن المسعى الذي يجب أن نتبنيه لتحديد مراحل تطور السوسيولوجيا في الجزائر يبدأ بالتواجد الفرنسي في الجزائر بل هناك من يرى بأنه قبل ذلك؛ خاصة مع تلك الدراسات الاستشراقية للجزائر (بغرض فهم ومعرفة كل ما يتعلق بالفرد الجزائري). لذلك نحاول إعطاء صورة، تبقى محدودة، عن يتسنى لنا إعطاء أثر تفسير الديناميكية والديناميكية التي تتحكم في هذا المجال من المعرفة، ومن تتولد لدينا قراءة واضحة عن حيثيات رصد الميدان السوسيولوجية.

أ- السوسيولوجيا الكولونيالية:

بعد أن وطأت فرنسا أقدامها في الجزائر بدأت بالتحقيقات والتحريات بل وبدأت قبل ذلك، فقد كانت بحاجة لمعرفة المناطق التي أبدت مقاومة شديدة، وكان لزاما عليها أن تكشف المجهول للأرياف والبدو، وكانت سنة 1833 بداية ممارسة المهمة السوسيولوجية الكولونيالية، السنة التي تم فيها تأسيس تشكيل لجنة استشراف الجزائر العلمي "la comité d'esplorotion Scientifique de l'algérie" بإشراف وزارة الحرب الفرنسية، هذه اللجنة التي كانت أعمالها أبحاثا تخص أحوال أوضاع الجزائر، والتي قسمت الجزائر فلوجيا إلى ثلاث مقاطعات: الجزائر، وهران قسنطينة ومما يظهر جليا الدور الحساس والكبير الذي لعبته هذه اللجنة في تحقيق تراكم معرفي سوسيولوجي كولونيالي "جزائري" يتطلب إعادة قراءته وتحليله بطريقة نقدية.

فالمستعمر الفرنسي لم يجد بديلا عن الدراسات السوسيولوجية للخطوات التي اتخذها، وضعت تحت قبضته - المجتمع الجزائري - فالحقائق والأبحاث والإحصاءات كانت مشوهة ومغالطة ومسخرة لخدمة مصالح الجيش الفرنسي، ويعود أول تحقيق ميداني حول المجتمع الجزائري ما بين 1844 و 1847 نشرت حصيلة هذه الدراسة في أربعين مجلدا، وشكلت بداية التراكم المعرفي والعلمي الكولونيالي حول المجتمع الجزائري.

Scanné avec CamScanner

* أهم الدراسات الكولونيالية: لقد كانت الدراسات السوسيولوجية الكولونيالية حول المجتمع الجزائري، واهتمامات المستعمر تخص أكثر موضوع الدين الإسلامي ومختلف مؤسساته من مساجد وزوايا ومقبرة إلخ، وحول الثنائية عرب/قبائل. بالإضافة إلى الأبحاث القانونية الاستغلال أراضي السكان الجزائريين كلها دراسات تخص عادات وتقاليد وطقوس المجتمع الجزائري عن بينها أعمال النقيب مو نعوفر Denneville، وتلميذه شارل Raymond charles".

أما فيما يخص الدراسات الخاصة بالقبائل، نجد دراسة "هانوتو" وزميله لوتورنو "Hanoutaux et Letourneau": بعنوان: جرجرة وحاد Kabylie et les coutumes Kabylies (إضافة 1) دراسة حول ليوزال Jules Lionale حول الأعراف البربرية لمنطقة قبائل جرجرة، حاولت تقديم تحليل وتفسير تاريخي واجتماعي للحركة الثورية إلى قامت في منطقة القبائل خاصة حركة المقاومة الشعبية للقراي والحداد اللتان اندلعتا عام 1871م.

في حين نجد في مجال الدراسات القانونية دراسة مينارفيل Menerville 1854 - 1848 Perron وبيرون 1860م للعنونة بقاموس التشريع الجزائري في أربعة أجزاء، ودراسة لميج Hugues Lapuat وهوغ براث تحت عنوان القانون الجزائري (إضافة 1) دراسة "إميل ماسكيراي" Emille Masqueray التي تندرج تحت غطاء الدراسات الإثنوغرافية، ودراسة "كاريت" Carette "Coutte" وهي دراسة هامة ومشهورة 111.

إن الملاحظ والقارئ للسوسيولوجيا الكولونيالية، يرى طغيان الجانب الإثنوغرافي عليها، ومنا يتطلبا التمييز بين السوسيولوجيا والعلوم المجاورة لها كالإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، فالدراسات السوسيولوجية الكولونيالية غلبا عليها الطابع الإثنوغرافي الوصفي، ثم جاءت فيما بعد الكتابات الإثنولوجية والسوسيولوجية التي استخدم فيها الأسلوب التحليلي المقارن للمادة الإثنوغرافية

(1) محمد أكلي فرادجي: الإشكالية المعرفية للسوسيولوجيا الكولونيالية في الجزائر، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر. ص 103.

Scanné avec CamScanner

وبالتالي فالدراسات الكولونيالية كانت دراسات وصفية لأسلوب حياة المجتمع الجزائري، المتمثلة في العناصر من اللغوية، الثقافية والإسلامية، والتي شكلت مادة أساسية للتحليل والمقارنة.

لقد تركزت الدراسات والأبحاث على دراسة القبائل، والثنائي عربي/بربري والدين ومؤسساته واللغات، وهو ما أدى بالبعض) تكريس منظور التحليل الانقسامي والازدواجية في الكتابات السوسيولوجية كانت ولا زالت سائدة!) وهو ما جعل ابن خلدون في تقسيمه للمجتمع العربي) بدو وحضر، ثم أوغست كونت في تقسيمه للمجتمع الاستاتيكي والديناميكي، ثم دوركايم في تقسيمه للمجتمع الآلي والعضوي، وفي الجزائر مثلت الثنائية دائما/تقليد، حضارة/بدو مواضيع بارزة في الدراسات السوسيولوجية.

إن الدراسات الكولونيالية حول المجتمع الجزائري، أو الإرث الكولونيالي في ظل الأبحاث السوسيولوجية حول استمرارية هذه المعرفة في الدراسات الراهنة أو وضع قطيعة معها، فهناك من ينادي بوضع القطيعة مع هذا الإرث بحكم أنه كان في خدمة مصالح وأغراض فرنسا، وأيضا من الطابع الأكاديمي وهذا ما يتطلبه الرجوع إليه بتحليل نقدي، فنجد مثلا: عبد الكبير الخطيبي من الباحثين المغاربة المشتغلين بضرورة خلق قطيعة إبستمولوجية وإيديولوجية مع كل الخطابات المعرفية التي أقيمت حول المجتمعات المغربية قبل وبعد الاستقلال. إذن البحث الذي يعتمد على معرفة ودراسات سابقة فهو تابع لتراكم مستمر، ولهذا تعتبر الدراسات الكولونيالية من المراجع التاريخية الهامة التي يجب استعمالها والاستفادة منها بطريقة صحيحة منهجية ونقدية.

لقد استمر البحث السوسيولوجي في الجزائر بتبعية لهذا الإرث الكولونيالي بعد الاستقلال، وما يؤكد هذا قامت الفرنسيين الذين تابعوا مهامهم في قسم علم الاجتماع كإميل سيمار الذي تولى إدارة قسم علم الاجتماع ما بين 1963-1967 وبيار بورديو وبرنوه Baillard 1967 - 1969، إضافة إلى استمرارية المناهج والمفاهيم الفرنسية في الجامعة الجزائرية.

Scanné avec CamScanner

ب- علم الاجتماع في الجزائر بعد الاستقلال: يتمثل تطور السوسيولوجيا في الجزائر منذ الاستقلال إلى يومنا هذا حول ثلاثة مراحل كبرى:

① مرحلة ما بعد الاستقلال: عمل علماء الاجتماع في هذه المرحلة على التوفيق بين الرصيد السوسيولوجي الموروث من جهة، ومن جهة ثانية مشروع الدولة الوطنية الذي سعت إليه الجزائر، وبالتالي غيابها في هذه المرحلة النقد العلمي للأطروحات الكولونيالية. طالما أن علم الاجتماع كانت تحت توجيه فرنسا، فالمدراء كلهم فرنسيون السبعة المستوردة من فرنسا هذا كان يخضع كل الدول العربية غداة الاستقلال".

وكانت سنة 1964 السنة التي نوقشت فيها لأول مرة رسالتان لنيل شهادة الدكتوراه الحلقة الثانية جزائريتين ومن طرف جزائريين: رسالة فاروق بن عطية بعنوان "العمل النسوي في الجزائر" Le travail féminin en Algérie ورسالة بن أشنهو مراد بعنوان دراسة سوسيولوجية للتيار الزراعي في الجزائر Étude sociologique de l'autogestion agricole en Algérie

② القطيعة مع الظاهرة الاستعمارية، ومواصلة تطويرها بالفهم والنقد الاستيعاب على الصعيدين العلمي والعملي، وهو ما يمكن أن يترجم سوسيولوجيا بموقف رفض النقل الآلي لسياقاتها النظرية والمنهجية، إلا أن التوجه الفرانكوفوني بقي مسيطرا في الجامعة الجزائرية في أواخر السبعينات.

③ من السبعينات إلى منتصف الثمانينيات: وهي المرحلة الحاسمة من عمر علم الاجتماع نظرية بأحداثها وقائعها الحاسمة في تاريخ السوسيولوجيا الجزائرية، في هذه المرحلة حدثت القطيعة مع الإرث الكولونيالي، ويتجلى ذلك من خلال مشروع الدولة الجزائرية الذي تبنته الجزائر، والذي شرعت في تطبيقه فعليا، هذا المشروع أريد له أن يكون مشروعا تحديثيا في مقابل محاربة كل ما هو تقليدي، وهنا حولت لعلماء الاجتماع في الجزائر قالب الإيديولوجيا الاشتراكية الجزائرية الواحد، وهذا ما نفسر الشروخ التي سادت في تلك الفترة، ما جعلهم يسمون في هذه الفترة بالمرحلة النضالية، أي نضالا مسطرا من قبل الدولة على حساب ريع بترولي مسخر.

في هذه المرحلة كان ينظر إلى علم الاجتماع كعلم تحرري يحقق التقدم للمجتمعات الخارجة من الاستعمار أي كان مرادفا للتنمية والتغيير، وهذا يدل على وضعية علم الاجتماع في الجزائر ومكانته وطبيعته مكرسين لخدمة المصلحة العليا في إطار الإيديولوجية الاشتراكية ومن هنا يصبح الحديث عن علم إيديولوجي تفسيري لا علم أكاديمي.

هذه المرحلة تعتبر غنية بأحداثها حيث عرفت ذلك بداية إصلاح التعليم العالي سنة 1971 وعلم الاجتماع خاصة، جزائرة الجامعة وتعريبها بمراحلها، وتكوين الإطارات استجابة لطابع التنمية 1971 وقانون 1980 الذي استهدف جزائرة الجامعة وتعريبها بمراحلها، وتكوين الإطارات استجابة لطابع التنمية 1971 وقانون

Scanné avec CamScanner

② مابعد الثمانينات إلى غاية اليوم: وهي المرحلة التي انخرطت فيها مسار السوسيولوجيا فيه ما كان مهيمنا إيديولوجيا لصالح الدولة أصبح مع سقوط النظام الاشتراكي، وتبني الإيديولوجية الليبيرالية مهيمنا ومتبنى مرغوب فيه، وأصبح الاتجاه نحو العلوم الطبيعية والتقنية باعتبارها أساس تنمية الاقتصاد الوطني على حساب العلوم الأخرى وتراجعت قيمة السوسيولوجيا وفقدت هويتها، وخلال هذه الفترة نجد القنصل عباسي يقول: "إن للوقف السلبي اتجاه علم الاجتماع بدأ واضحا من خلال الخريطة الجامعية التي تم اعتمادها سنة 1984 التخطيط لاختزال معاهد العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع خصوصا وضعافة للمعاهد المتخصصة للعلوم التطبيقية والتكنولوجية.

مع دخول الجزائر فترة العشرية السوداء وانهيار الحزب الواحد الحاكم، وظهور العنف والإرهاب وأحداث أكتوبر 1988 وغيرها من الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحادة التي أثرت في البحث السوسيولوجي نوعا ما، كما تراجعت للفاهيم ذات الصبغة الاشتراكية أمام ظهور مواضيع جديدة وتم الاهتمام بالقضايا الثقافية والسياسية وبرزت دراسات تتمحور حول وضعية المرأة، الحريات الدينية، الأحزاب، حقوق الإنسان... والتي كانت تعد في عهد الإيديولوجيا الاشتراكية من الطابوهات.

كما بدأ علم الاجتماع في هذه المرحلة يبتعد عن الدولة في الوقت الذي بدأت فيه هذه الأخيرة تتجلى عن التزاماتها اتجاهه، فالانقلاب السوسيولوجي كان ضمن الانقلاب السياسي بعد أحداث أكتوبر 1988 وبهذا وضحا من خلال الإصلاحات التربوية في برامج علم الاجتماع ثم في ميدان البحث من خلال مواضيع البحث السوسيولوجي والكتابات السوسيولوجية بعد سنة 1988.

ضمن هذه الظروف التي عرف فيها علم الاجتماع بالأزمة، الفشل وغيرها من التسميات التي تختلف باختلاف المعاني وباختلاف الباحثين، أخذ علم الاجتماع وعلماؤه اتجاها نقديا، محاولين بذلك تحديد أسباب قصوره في تفسيره للواقع الاجتماعي.

وإن إثارة مسألة أزمة علم الاجتماع بشكل دوري في الآونة الأخيرة من قبل العديد من الكتاب والباحثين العرب والجزائريين بصفة خاصة أصبحت اليوم تحدث بالعشرات من خلال الملتقيات، الندوات، المحاضرات وغيرها، ولعل هذا ما صرح الأستاذ عبد القادر لقجع في ملتقى بوهران حول علم الاجتماع والمجتمع سنة 2012 "ما زال تؤثر المعاينات على طرق علماء الاجتماع حتى الآن في علم علمهم وممارساتهم؟"

يمكن القول بناء على هذا أن علم الاجتماع لم يتغير والمهتمون بهذه الأخيرة لم يتجاوزوا بعد مصطلح الأزمة، التوجه نحو علم اجتماع نقدي... ومحاولة خلق وبناء حقل مفاهيمي جديد.

Scanné avec CamScanner

3/ التوقع الأكاديمي للسوسيولوجيا الجزائرية : تم استعمال مصطلح السوسيولوجيا في الجزائر مع بداية تدريس المدرسة الدوركايمية في فرنسا، الاعتراف بها، وفائدة من حيث الاستعمال مع دراسة من سباتي Salatier سنة 1884 لهذه السوسيولوجيا الكولونيالية Sociologie indigène ثم سوسيولوجيا الإسلام وسوسيولوجيا البربر والسوسيولوجيا في الجزائر .

لقد كان علم الاجتماع في الجزائر تابعا للفلسفة، ما جعله محل نقاش وتضارب حول استقلاليته كفرع مستقل من الفلسفة، فنجد الفريق الذي يتزعمه نسيب رحيم Nassib Redjim في كتابه Industialisation et Système éducatif en Algérie أن معهد الفلسفة وعلم الاجتماع أحدثت بجامعة الجزائر سنة 1952، والفريق الثاني يتزعمه مصطفى بوتفنوشت من خلال مقاله في مجلة علم الاجتماع تحت عنوان: (1991)

Aperçu historique de l'enseignement de la Sociologie الذي يقول فيه أن الانطلاقة الرسمية واستقلالية هذا الفرع عن فروع المعرفة في العلوم الاجتماعية يرجع سنة 1958 داخل كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة الجزائر، والفريق الثالث يتزعمه عبد الرحمان بوزيدة في مقاله الذي كتبه في جريدة الشعب الأسبوعي تحت عنوان علم الاجتماع والإصلاح سنة 1976 يقول أن علم الاجتماع كفرع مستقل في جامعة الجزائر كان في بداية الستينات وكان يشتمل خمسة شهادات: علم الاجتماع العام، علم النفس الاجتماعي، الديمغرافيا، الاقتصاد، الانتروبولوجيا .

لقد درس علم الاجتماع في البداية كما سبق القول كمقياس ضمن تخصصات الحقوق والسياسة والفلسفة وأدخل لأول مرة في كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية والسياسية سنة 1930 لصالح الطلبة في طور تحضير شهادة الدكتوراه وكان روني موني René mounier أول من وضع برنامجا لتعليم الاجتماع موجها للطلبة، أما في كلية الآداب والعلوم الإنسانية "فرع" كان يدرس من طرف الجيل الأول والثاني غداة الاستقلال سيدي بومدين، محفوظ سماتي، فاطمة الأساتذة كانوا فرنسيين وهو ما أدى كذلك إلى نقصان عديد في جامعة الجزائر أغلبية الأساتذة كانوا فرنسيين انسحبوا

Scanné avec CamScanner

كانوا طلبة قدامى لـ Etienne Balibar في الفلسفة
و Jean pierre Brillaud في علم الاجتماع، وكذلك بول ريكور وباسرون
وبورديو وصيار وروبار كاستل كلهم من المدرسة الأوروبية قدموا للتدريس في الجزائر
أما من حيث التيار الفكري فتميزت هذه المرحلة بالاستقرار في كل من إميل سيكار
وبعد صغار تلته الجزائر 1967 تعاقب العديد من الأساتذة الأجانب على هذا
القطاع ليصبح فاروق بن عطية أول جزائري بعد هم يدرس قسم علم الاجتماع.

Scanné avec CamScanner